

دم المسيح وصيغتنا

"أستطيع أن تشرب الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصيغة التي اصطبغ بها أنا؛ فقالا له نستطيع"

نعم نستطيع أن نصطبغ بصيغته وأن نشاركه كأسه! لكن السؤال المطروح هو من يعطينا هذه القوة وكيف تكون فينا هذه الإرادة؟

يكلّمنا النصّ الإنجيليّ عن كأس وصيغة شهادة. وهذه الكأس ملآنة من دم المسيح عينه. المسيح هو الذبيح الذي تكلم عنه بولس الرسول في الرسالة إلى العبرانيين اليوم؛ مقارناً بين الدين القديم والدعوة الجديدة. فإذا كان دم الضحايا من عجول وسواها يُقدّس الناس ويطهر الجسد، كم بالحري دم المسيح الذي سكب نفسه على الصليب لأجلنا يستطيع أن يطهر ليس الجسد وحسب، وإنما ضمائرنا من الأعمال الميئة لعبد الله الحيّ! هذه هي الكأس التي يعرضها المسيح على تلاميذه، الملآنة من دمه الكريم الذي حين يهرق لأجلنا علينا أن نطهر ضمائرنا به.

الضمير البشريّ هو ناموس طبيعيّ موجود في الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله، وبالتالي هو مفطور على الخير ولا يرتاح أبداً في الشرّ.

بولس الرسول يُعرّف هذا الضمير "بناموس" حين يقول من ليس لهم ناموس (معتقد - دين) فإنّ ناموس ضميرهم يقودهم إلى القيام بالأعمال التي يطلبها الناموس.

لكننا، بعد السقوط، تتنازعنا الأهواء وتأسر قلوبنا المصالح والرغبات، لذلك غالباً ما نسكت صوت الضمير. ليست قليلة هي المرآت التي نضحّي فيها بالضمير لنضمن حماية أو مصلحة أو ما إلى ذلك. الضمير خطّ إلهيّ في النفس البشريّة لكن من السهل جداً تغطية كلماته. لطالما داست الرغبات هذه الخطوط وكثيراً ما صمّت أذاننا عن كلماته لتسمع نغم مطربات الدنيا...

لذلك، شاءت الحكمة الإلهية أن تضع أمام الإنسان ناموساً مكتوباً يويّخ الخطيئة بقوة، إذا طمسنا صوت الضمير ضدها. فأعطيّ الناموس ليحفظ الحياة البشريّة ويصرخ في كلّ وقت في الدين والمذبح

والمجتمعات دائماً على الخطيئة ويفضح أعمالها. فمن كان يُسكت صوتَ ضميره قرَّعه الناموس بصوتٍ أقوى. وصار الناموس موبِّخاً ومؤنباً وراذعاً حين يعجز الضمير عن ذلك.

في العهد الجديد ظهرت صرخة جديدة، إنَّها صرخة النعمة، التي تدعو وتقوي وتشجِّع، خلافاً للناموس الذي يردع ويحاسب ويوبِّخ. كان المسيح يعرف أن جبلته التي خلقها كريماً وشريفة. في إنجيل يوحنا يعبر عن ذلك بوضوح قائلاً: متى ارتفعت على الصليب سأرفع إليّ كثيرين. كان الربُّ يعرف أنَّ شهامة الإنسان لا يمكنها أن ترى دمه المسفوك من أجلها دون أن تتحرَّك وتتبع خطواته. وهنا كان يسوع يعرف تماماً أنَّ هذين التلميذَين لن يخافا من كلمة الكأس ولن يتردداً أمام الصبغة كما أجابا "نعم نستطيع". حين أراد بولس الرسول أن يودِّع كنيسة أفسس، جثا على ركبتيه وخاطب رعاتها مستحليفاً إياهم بدم يسوع الذي اشتُرنا به.

في العهد الجديد لا يوجد دعوة أقوى من دم يسوع المُهراق لأجلنا على الصليب. المسيحيُّ الذي ينظر إلى صليب الربِّ لا يمكنه أن يمرَّ به ويعبر عنه دون جواب. فنحن بجرح المسيح شُفينا. نعم إنَّ دم المسيح قادر أن يطهِّر ضمائرنا التي نجَّستها الرغباتُ وخوفُ العادات وكلُّ الميول والنزوات. دم المسيح دعوة حيَّة تلهب كلَّ قلب بشريٍّ وتحرق فيه كلَّ الرغبات الماضية.

وهذا ما حدث مع أمنا البارة مريم المصرية، التي نُعيد لتذكّارها في هذا الأحد الخامس من الصوم الكبير. لقد كانت هذه القديسة قد غارت سابقاً إلى قعر دنيا الشهوات، ولكنها لما زارت الأراضي المقدسة وتذكَّرت الدمَّ المسكوب، طهَّر هذا الدم ضميرها الذي أعتم من الأدناس، وغسله بالنعمة. لقد هزَّ قلبها انسكابُ الدم الإلهيِّ وكسَّر قشرة القساوة عن عين ضميرها. وراحت بعد ذلك تطهِّر ضميرها في البرية أربعين عاماً بالنسك والأصوام والصلوات.

دم المسيح يدعونا إلى تطهير ضميرنا الشخصي من أدران الشهوات ونجس اللذات الدنيا. القلب المجروح بحبِّ المصلوب تحرق فيه لهبةً النظر إلى الصليب عشبَ الشهوات. الإنسان الكريم ذو النفس الشهمة حين يتعشَّق التضحية كالمسيح يزهد في كلِّ ما هو أدنى. دم المسيح يدعونا لتطهير الضمير الجماعيِّ الاجتماعيِّ بعد ذلك. صليب المسيح مسألة ليست خلقية أو نفسانية لكلِّ منا على حدة.

صليب المسيح يُعصّب الأرض من جهاتها الأربعة بخشباته الأربعة. خلاصنا ليس فردياً. صليب المسيح حياة لكلّ إنسان. مسألة نحيا لها فنحيا منها. دم المسيح قضيّة نرثها على حياة مجتمعاتنا فتطهرها من الاستهلاك ومن قهر الشخصيات وتهبها الحرّيات.

لما كان الضمير كصوت طبيعي عاجزاً، وبعد أن ساعد الناموس المكتوب، جاء أخيراً عهد النعمة يخاطب في الإنسان ليس الفطرة، ولا الواجب بالأحرى، وإنّما الشهامة الإنسانيّة والكرامة البشريّة، التي أمام دم المسيح تخلع عنها كلّ عناقّة وتجدّد داخل الإنسان روح الطهارة؛ روح القداسة؛ وتجدّد مع الإنسان مجتمعه. فإذا كان دم الضحايا في دين العهد القديم قادراً على تطهير الجسد، كم بالحري دم المسيح يدعونا لنطهر ضمائرنا ونصرخ للربّ القادم إلى آلامه، الأسبوع القادم، نعم يا ربّ نستطيع، ونريد أن نشرب الكأس عينها وأن نجعل من دمك صبغتنا المسيحيّة.

أمين